الفكاهة في شعر محمود غنيم

كان للفكاهة في حياة الشاعر الراحل محمود غنيم (١٩٠١ - ١٩٧٢ م) وشعره جانب وافر،فقد عُرف عنه أنه سريع البديهة ، حاضر النكتة ، خفيف الظل وما يروى على ألسنة مخالطيه من الأدباء أكبر بكثير مما حوته دواوينه المطبوعة وديوان (صرخة في واد) هو أشهر دواوين محمود غنيم ،فقد نال هذا الديوان جائزة الشعر الأولى في مسابقة المجمع اللغوي بالقاهرة ونشر عام ١٩٤٧م عن طريق لجنة البيان العربي - ويحتوي هذا الديوان على عدد لا بأس به من قصائد الفكاهة الراقية التي جمعها شاعرنا تحت عنوان (مداعبات) .

ومن قصائد الفكاهة الممتعة في هذا الديوان تلك القصيدة التي داعب فيها محمود غنيم صديقاً شاعراً سلبه اللصوص سبعة جنيهات ، وكان لمثل هذا المبلغ في وقته شأن أي شأن وقد نشرت هذه القصيدة في مجلة الرسالة في ٦ يونية سنة ١٩٣٨م ومطلعها آية في الإجادة وبراعة الاستهلال إذ يقول شاعرنا مواسياً صديقه المسروق :

هوِّن عليك وجفف دمعك الغالي لا يجمع الله بين الشعر والمال

ويتجه شاعرنا إلى صديقه ساخراً مؤنباً فيقول وهو يمزج سخريته من صديقه الشاعر بالسخرية من نفسه أيضاً :

من أين أصبحتَ ذا مالٍ فتُسْلَبُه يا أشبه الناس بي في رقة الحالِ ؟

فيالها سبعة من جيبكَ انطلقت وأنت أحوج مخلوق لمثقالِ

وتأخذ مواساته لصديقه شكل النصح وصوت الحكمة ، فهو يقول إن صديقه كاد يفقد عقله بفقده النقود ، ولعل ضياع النقود يكون وسيلة لسكون النفس فالذي لا يملك شيئاً ينام قرير العين رضيّ البال لأنه لا يخشى على شيء يملكه ويفخر بنفسه فهو أقوى من اللصوص بما هو فيه من فقر :

قالوا خلت يده من كل ما ملكت ... فقلت بل رأسُه من عقله خالِ

لم يبق عندك ما تخشى عليه فنم ... كما أنام قريراً ناعم البالِ

نفسي- فداؤك ليت اللص صادفني ... قد يغلب اللصَّ بالإفلاس أمثالي

وتبلغ سخرية الشاعر بصديقه أقسى درجاتها حين يتساءل كيف سيقضي هذا الصديق شهراً كاملاً بلا مال ؟ هل سيصوم ؟ أم سيعيش على شعره يقتات منه ويرتوي به ؟ كما يرتوي الظمآن بالسحاب من بعيد :

يا ليت شعريَ ماذا أنت صانعه ... أتزمع الصوم حتى شهرك التالي ؟

عش من قريضك في رِي وفي شبع ... إن كان ينتفع الظمآن بالآل ؟

وفي ختام القصيدة يتهم شاعرنا صديقه المسروق بأن النقود فرت من جيبه لأنه جيب ممزق في ثوب قديم لعبت به يد الزمن ، فهو في سوء حاله ورقة سربال لا يختلف كثيراً عمن سرقوه :

أقسمتُ ما سَلَبَتْ تلك النقودَ يدٌ ... لكنها أبَقَتْ من جيبك البالي

الذئب لا يشتهي لحم ابن جلدته ... فكيف أوقع نشالٌ بنشالِ ؟

ومن مداعبات محمود غنيم الراقية أنه استمع ذات مرة لمحاضرة ممتعة ألقاها صديقه الأديب الكبير كامل الكيلاني عن فلسفة جحا ويبدو أن المحاضرة كانت جامعة شاملة مقنعة بسلوكيات جحا ذلك الفيلسوف الذي اشتهر في تراثنا العربي بذكائه وفطنته وبخله . فعقب محمود غنيم على هذه المحاضرة قائلاً :

إني حسبت جحا مُجانَةَ ماجنٍ ... فإذا به رجلٌ جليل الشانِ

هو فيلسوف قام ينشرُ فَضْلَهُ ... بين البرية فيلسوفٌ ثانِ

مازال يُطريه ويُعلي قدره ... متحدثاً عنه كل لسانِ

حتى حسِبتُ(جحا) ابنَ سينا عصرِهِ ... أو من أقارب كامل الكيلاني

ومن المساجلات الشعرية الفكاهية التي كانت كثيراً ما تحدث في تلك الحقبة بين الشعراء ، ما دار بين شاعرنا محمود غنيم وبين الشاعر محمد الأسمر رحمه الله وقد كان الأستاذ محمد الأسمر نشر كلمة نثرية في جريدة الأهرام يحث فيها الضيوف الذين يقلقون راحة الناس في منازلهم أن يراعوا مشاعر الناس وأوقات راحتهم و اقترح الأستاذ محمد الأسمر على كل صاحب بيت أن يعلق على بابه بيتين للشاعر الأستاذ محمد الهراوي يخاطب فيهما الضيف فيقول :

إن في الفندق مأوا ... ك ، وفي السوق غذاءك

ليس ذنباً لأناسٍ ... أن يكونوا أقرباءك

فكتب الشاعر محمود غنيم في الأهرام يوم ١١ يوليو ١٩٣٨م يرد على كلمة الأستاذ محمد الأسمر ويداعبه قائلاً إن عليه أن يصوم إذا كان عنده ضيوف ويقدم

ما عنده من طعام وغطاء لضيوفه ، فإن تمسك ببخله وحرصه ، فإن أصدقاءه من الشعراء سوف يتشككون في انتسابه إلى العروبة ، وسوف يقومون بتحليل دمه [وهي تورية لطيفة قد يقصد بها أنهم سيحللون دمه لمعرفة إلى أية فصيلة ينتمي وقد يراد بها أنهم سيستحلون دمه لبخله].

وفي النهاية يقدم الشاعر لصديقه وصفة طبية لعلاج البخل تتمثل في أن يأخذ " نقيع " الجود فيشربه ليشفى من داء البخل . يقول غنيم لصديقه الأسمر

أنـــت إن لم تَسْـــخُ مثـــل الـــ ـــعرب أنكرنـــا إخـــاءك
وشَـــكَكْنَا فيـــك يـــا صـــا حِ وحلّلْنـــــا دمـــــاءك
لا أَوَاك البيـــــت والفنـــــ ـــدقُ يـــأوي أقربـــاءك
فـــيم يخشـــى فقـــدَك النـــا سُ ويرجـــون بقـــاءك ؟
إن يهـــن عنـــدك ضـــيفٌ يكـــن الهـــون جـــزاءك
فـــدع الحـــرص وإلا عجَّـــل الحـــرص فنـــاءك
إنـــما يُفقـــرك الحـــر ص. ويُغنـــي وُرَثـــاَءك
رُبَّ يـــوم أنـــت فيـــه تـــارك المـــال وراءك
يـــا صـــديقي قـــد فَحَصْـــ ـــناك فكـــان البـــخلُ داءك
خـــذ نقيـــع الجـــود واشـــ ـــربْهُ تجـــدْ فيـــه دواءك

وينهي محمود غنيم قصيدته بتقديم واجب العزاء لصديقه الأسمر في فقيد عزيز هو " السخاء والكرم " الذي كان يتحلى به أمس ثم فقده فهو يعزيه في كرمه الذي كان فيقول :

كنتَ بالأمس سخياً ... رحم الله سخاءك

ابكِ ما شئتَ عليه ... أَجْمَلَ الله عزاءك

وقرأ الأستاذ الشاعر محمد الأسمر أبيات صديقه محمود غنيم فرد عليه في "الأهرام " بتاريخ ١٩٣٨/٧/١٧م ووصف صديقه بأنه يحاول ادعاء الكرم مع أنه بخيل بطبعه ، وبأنه كشف ستر نفسه ولم يكن بحاجة إلى إجهاد نفسه في التزيي بزي غيره . قال الأسمر :

يا صديقي أنت في شعـ ... ـرك لم تلبس رداءك

يا كريم العصر ما أجـ ... ـمل في الجود ادعاءك

شدَّ ما أتعبت شيـ ... ـطان قوافيك وراءك

قد عرفناك صغيراً ... وتبيَّنَّا سخاءك

فاحمد الله على السَّتْـ ... ـر ولا تكشف غطاءك

لا أطيل القول أنت اليـ ... ـوم أصبحت سواءك

صرتَ محموداً جديداً ... بعد ما داويتَ داءك

فأطال الله للجود ... الكلاميِّ بقاءك

ويتطاير شرر المعركة ، ويستمر أوارها ، فيرد محمود غنيم على صديقه الأسمر بقصيدة ينشرها الأهرام يوم ١٩٣٨/٧/٢٠ يذكر فيها أن له فضلاً على الشاعر محمد الأسمر ، وأنه أطعمه وأكرمه عدة مرات ، وأنه يريد أن يذكِّره بهذا لولا خشيته من أن يقول الناس إنه يمنُّ عليه . ويناشد محمود غنيم صديق الأسمر أن يتوب إلى الله ويعترف بما لصديقه من فضل عليه ويسعى إلى تعلم الكرم والجود فيقول غنيم :

أيهـــا المنكـــرُ جـــودي ... رحـــم الله حيـــاءك
أنـــا لـــولا أن يقولـــوا : ... مـــنَّ أظهـــرتُ افـــتراءك
هـــل تناســـيتَ ســـخائي ... وتناســـيتَ ثنـــاءك ؟
كـــم نظمـــتَ الشـــعر في مـــد ... حـــي فأجزلـــتُ عطـــاءك
وعـــلى جـــوديَ- بعـــد اللـــ ... ـــهِ – علَّقـــتَ رجـــاءك
أنـــت مـــن يـــوم بعـــادي ... عنـــك لم تمـــلأ وعـــاءك
عَـــرَفَ الرَّفَّـــاءُ يـــا أســـ ... ـــمر مـــن بعـــدي كســـاءك
وعجيـــب منـــك أن تهـــ ... ـــدم مَـــن أَعْـــلى بنـــاءك
رُبَّ شـــخص أنـــت أحسنـــ ... ـــت إليـــه فأســـاءك
صـــاح تُـــب أمنحـــك عفـــوي ... وادْعُنـــي أقبـــلْ دعـــاءك
وإذا شـــئتَ فكـــن ضيـــ ... ـــفي وَقُـــدْ جيشـــاً وراءك
تجـــد المـــنَّ شرابـــاً ... لـــك والســـلوى غـــذاءك

فتعـــــلم منِّـــيَ الجـــو دَ وعـــــلَّم أقربـــاءك

لســـتَ بالمصرِّـــيِّ أو تُعـــ ـــلنَ للنـــاس ســـخاءك

فبعث إليه الشاعر محمد الأسمر بالأبيات الآتية وكانت ختام المداعبة

ويـــك يـــا محمـــود هـــل تنـــ ـــسى ردائـــي ورداءك ؟

يـــوم تمشي فيـــود الـــ ـــدهرُ لـــو قـــام فَقَـــاءَك

فـــاذكر الـــدار التـــي كنـــ ـــا بهـــا واذكـــر بكـــاءك

لم تَمُـــــؤْ هِـــــرةُ دار يـــوم أضربْنـــا مُـــواءك

طفـــتَ بـــالمطبخ ســـبعاً وتناولـــتَ حســـاءك

أنـــت لم تـــترك لمصرٍ يـــوم نادتـــك غـــداءك

أتـــرى تـــتركُ للضيـــ ـــفِ ذا جـــاء عشـــاءك

يـــا صـــديقي هكـــذا كنـــ ـــا فهـــل صرت ســـواءك ؟

يـــاكريم العصرِ هـــل تبـــ ـــصر قلقـــاساً وراءك

مـــا هجونـــاك ولكنَّـــ ـــا ذكرنـــا لـــك داءك

والمقصود بالدار في هذه الأبيات دار مدرسة القضاء الشرعي التي كان الشاعران غنيم والأسمر زملاء دراسة بها أيام التلمذة .

وأما قصة القلقاس فتتلخص في أن تلامذة القضاء الشرعي أضربوا يوما عن دخول مطعم المدرسة احتجاجاً على تصرفات الإنجليز ضد الوطن . ولكن الشاعر

محمود غنيم لم يصبر على الجوع فدخل المطعم وحده وتناول الغداء وكان قلقاساً فالأسمر يعيره هنا بهذه الواقعة .

ويلاحظ من يقرأ هذه المساجلة :

١. أن الشاعرين التزما بحراً واحداً ، وقافية واحدة ، ومع ذلك فقد جاءن الصياغة الشعرية عند كليهما محكمة لا ضعف فيها ولا تكلف .

٢. أن المساجلة قامت على ادعاء من كلا الطرفين وقامت على تبادل الاتهام بالبخل وادعاء كل منهما أن له على الآخر فضلاً وأن الآخر لا يعرف الجود والكرم .

٣. أن الإطار الذي صيغت فيه أبيات كلا الشاعرين إطار أخلاقي يسيج بالأخلاق العالية الرفيعة فلا شتم ولا بذاءة ولا إسفاف وهذا هو شأن الفكاهة الراقية

٤. أن رد كل من الشاعرين على صاحبه كان يأتي سريعاً وقوياً في آن واحد

ومن فكاهات محمود غنيم ذات الوزن الثقيل ما وصف به شاعراً صديقاً له أغمي عليه عندما سمع صوت غارة جوية . وكان ذلك إبان الحرب العالمية الثانية وكان الشاعران في الإسكندرية ، ومن عادة الناس في أثناء الحروب أن يستمعوا إلى بوق الإنذار ، فإذا سمعوه لجأوا إلى اقرب مخبأ من تلك المخابيء التي تكون معدة تحت الأرض أو وراء ستائر رملية لتقي المدنيين من آثار القصف العشوائي

وقد لجأ الشاعر وأصدقاؤه فيما يبدو إلى أحد المخابيء ، فلما حدثت الغارة أغمي على صديقه ذاك حتى إذا أفاق اكتشف أصدقاؤه أنه لوث نفسه ، فقال غنيم هذه الأبيات التي نشرها "الأهرام " في ١٩٤١/٩/١٠م

أرأيـــــت صُـــــنْعَ محمـــــــدِ في مخبـــأ بالنـــاس حافـــلْ
ســـــمع الصـــــفير مدوِّيـــــاً فتفككـــت منـــه المفاصـــلْ
مـــا كـــان أشـــجعَه فقـــد لاقـى "القنابـل" "بالقنابـلْ"
ووهـــتْ عزيمتـــه فأفْلَـــتَ يـــابسٌ منـــه وســـائلْ
ويحـــي عـــلى رفقائـــه مـــن قاتـــلٍ هربـــوا لقاتـــلْ

وهكذا هرب أصدقاء ذلك الشاعر الرعديد من قصف القنابل خارج المخبأ فوقعوا فيما هو شر منها مما أحدث صاحبهم من جزع وهلع وتلوث بيئي وأصوات منكرة .

ومن أشهر أشعار محمود غنيم الفكاهية تلك الأبيات التي سارت بين أوساط المثقفين والأدباء وكررت الصحف والمجلات نشرها مرات ومرات لأنها ارتبطت بشاعر آخر هو ابراهيم ناجي . وقصتها أن الوزير الأديب دسوقي ابراهيم أباظة باشا وكان صديقاً لجميع أدباء عصره - دعا محمود غنيم مع آخرين إلى حفل رسمي وكان يتعين على من يحضر حفلاً رسمياً أن يرتدي الردنجوت [بدلة رسمية للمناسبات الرسمية] - فذهب غنيم بملابسه العادية فلما رآ ه الوزير سأله عن سبب عدم مجيئه بالردنجوت فتعلل الشاعر بأنه فكر أن يستعير واحداً من بعض أصدقائه - كما فعل ابراهيم ناجي - ولكنه تراجع عن ذلك خوفاً من أن يمنَّ عليه من يعيره . ودلل على ذلك بأن جميع الحاضرين يرتدون أزياء ردنجوت مستعارة فأنت ترى القصير منهم يرتدي زياً طويلاً ، والطويل يرتدي زياً قصيراً يقول غنيم :

"الردنجـوتُ" يـا جنـاب الـوزير لـيس يقـوى عليـه جيـب الفقـير
رمـتُ أن أسـتعيره مثـل "نـاجي" ثـم أحجمـت خـوفَ مَـنٍّ المعـير
كـم رأيـت القصـير فـوق طويـل ورأيـت الطويـل فـوق قصـير
لسـت أرضى بثـوب غـيري وإن هـم نسـجوه مـن سـندس وحريـر

ولما اطلع الأستاذ الشاعر ابراهيم ناجي على تلك الأبيات أجابه مداعباً بقصيدة طويلة جاء فيها :

وأُقسـم لـو أن " الردنجـوت " نِلْتَـه وجـاد بـه مَـنْ جـاد قهـراً وسـلَّفا
لقلَّبتَـــه ظهـــراً لـــبطنٍ تحـــيُّراً به تحسبنَّ الوجهَ -مِنْ عَبَطٍ- قفا

فأجابه الشاعر بقوله هاجياً إبراهيم ناجي وكان طبيباً :

لنا طبيـب يـداوي النـاس إن مرضـوا بالفصـل مـا بـين أرواح وأبـدان
ومـن تجـرع كـأس المـوت مـن يـده فلـن يمـر عـلى جنـات رضـوان
ردّ " الردنجـوتَ " موبـوءاً لصـاحبه فلم يطهـره " محلـول السـليماني "

و " محلول السليماني " من محاليل التنظيف الشهيرة في ذلك العصر التي كانت ذات فاعلية في قتل الحشرات وعلاج الأوبئة .

وهكذا كانت حياة شعراء تلك الأيام : حباً متصلاً ، ووداً وثيقاً ، وفكاهةً راقية على نحو ما نرى في دواوين طائفة كبيرة من هؤلاء الشعراء الذين يمكن أن نطلق عليهم شعراء الموجة الثانية الذين لم تتح لهم ظروف الحياة ما أتاحت لشعراء الموجة الأولى كشوقي وحافظ ومطران من شهرة وذيوع صيت ، فعوضوا ذلك بأن أسعدوا أنفسهم بالحب والتصافي بدلاً من الشهرة والتجافي .